

تسامعت قريش بخروج سيد بنى دوس: «الطفيل بن عمرو الدوسي» حاجاً إلى مكة في الموسم، فأسرع رجال منهم يستقبلونه على مشارفها قبل أن يدخلها، وهم يحسبون له ألف حساب.

كان ساعراً شريفاً لبيباً مطاعاً في قومه، فلو أن مسركى قريش تركوه يستمع إلى القرآن، لأسلم وأسلمت من ورائه قبيلة دوس كلها...

قالوا: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا وستت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يُفرق بين الرجل وبين أبيه وأخيه وزوجه وبنيه، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن له شيئاً.
ثم ما زالوا به، ينصحون ويحذرون، حتى أفنعوه. فاطمأنوا إلى وعده وقد أجمع ألا يكلم محمداً ولا يسمع منه.

واتجه طفيل إلى الكعبة وقد حشا أذنيه قطناً، يتقى به أن يبلغ سمعه صوت الداعى إلى الإسلام.

غير أنه ما كاد يلمح المصطفى قائماً يصلى عند الكعبة حتى اقترب منه على غير قصد، فنفذت إلى سمعه كلمات من القرآن لم يصددها ما حشنا به أذنيه.

قال يحدث نفسه مسترجعاً: وانكل أمى! والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى القول على، فما يعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته؟ وانتظر حتى انصرف المصطفى ﷺ إلى بيته. فتبعه ودخل عليه فقال:

- يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا.. فوالله ما برحوا يخوفونى أمرك حتى سددت أذنى لثلاث أسمع قولك. ثم أبى الله إلا أن يُسمعنى قولك فسمعتة قولاً حسناً، فاعرض على أمرك.

وعرض المصطفى عليه السلام، وتلا عليه القرآن. فيقول الطفيل:

«فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق. وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيتهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه.»